حقائق عن المادة والفكر

أيهما أصلح طريقا للمعرفة؟

للأستاذ فؤاد طرزى

الحياة لا تعرف الثبات ولا الاستقرار؛ بل هى فى تغير مستمر وفى نزوع دائم نحو التجدد والتحول، تستقر فيها جراثيم التوالد التى لا تنى تنقلها من حال إلى حال منذ الأزل وإلى اليوم وحتى يدركها الفناء. وهذه الخاصة الحية هى نداء الضرورة المطلوبة لإيجاد التوافق بين التغييرات الطبيعية والتبدلات التى تشمل مظاهر الوجود، وبين الكائنات الحية التى لا توجد إلا وهى ساعية نحو الكمال والسمو مهما اختلفت الصور التى تختارها لتعرض نفسها على مسرح هذا الكون.

وقد أطلق على هذا الجوهر الأصيل فى طبيعة الحياة اسم التطور، وهو يدل على أن كل ظاهرة من ظواهر الوجود توجد فى آن واحد، أى أنها تعمل على خلق حال جديدة لها فى نفس الوقت الذى تحيا فيه على حال معين. وبعبارة أبسط إنها تتجدد وتتجدد إلى أن تهرم وتموت. سمه التطور أو الديالكتيك أو ماشئت له من المسميات ولكن بعد أن تعرف أنه الأساس الذى تقوم عليه الحياة وأنه مفروض على الأحياء والجادات وهو يعمل من غير أن يُطلب أو تُراق لاستحضاره الدماء، بل إن كل ذلك لا يبدّل غايته ولا يغيّر وجهته.

كل هذا الذى نقوله متفق عليه من جميع الفلاسفة وعلماء الإجتماع، وهو ثابت بالبراهين الجدلية والعلمية لا ينقضه برهان أو ينكره إثبات، ولكن الاختلاف هو فى ماهية هذا التطور أو فى الدافع الذى يحركه فى سيره الدائب: فمنهم من يرجع هذا الدافع إلى عوامل مادية، فيقرر أن المادة هى الكل وهى التى تقود التاريخ وتوجه الأحياء، وهى الأصل المفرد الذى لا ينازعه أصل والإله الحقيق الذى لا يشاركه إله، أو هى — كما يقول انجلز — دورات الوجود الأبدية التى تتم بها الحياة. وأما الآخرون فيؤمنون بأن الفكر الملهم هو الذى يسوس الوجود، وأن العقل المدبر هو الذى يمسك بزمام الطبيعة وهو الذى ينفث القوة فى المادة فتكتسب الحياة أو يتركها طينة باردة لا تقدر على الحركة والتحول والايجاد. فالفكر هو الخالق وهو المبدع، وفى خلقه وابداعه يستوحى سنة أبدية تعمل بغير انقطاع؛ هاتان الفكرتان ظلتا تتنازعان تارة فى ميدان الفلسفة وحينا فى ميدان الإصلاح، وأخيراً ظهرت إحداهما وهى الفلسفة المادية فى شكل مذهب يريد إقامة المجتمعات وفق أصوله وقيمه.

وإذا أردنا النزول إلى ميدان البحث المقارن، ورغبنا فى وزنهما من حيث الأساس الذى قامتا عليه، وجدنا أن التفسير الفكرى أقرب إلى الحقيقة التى يتركب منها التطور وأدخل فى باب الشروح العميقة التى لا تحكم على المشاهدات المحسة ولا تقنع دون النزول إلى أبعد الأبعاد للتعرف على ماهية الموجودات وهذه جملة أدلة تثبت صحة مانقوله:

(أولا) المادية امتداد والفكرية عمق. والفرق بين الامتداد والعمق ان الامتداد يشغل مكانا يظهر للعيون والأبصار، وأما العمق فيخلق من غير أن يظهر للحواس فهو يُعرف بالبحث المجرد والتأمل النظرى أو هو الحقيقة الفعالة وراء المضويات ينفث فيها الأكسير الذى لم يستطع العلم تحديده ... هذا الأكسير مادة أثيرية جرى العرف على تسميتها روح الحياة. وإذا أردنا أن نضرب الأمثال لنظهر الاختلاف فى هذا بين الماديين والفكريين فلنأخذ ظاهرة اجتماعية كبرى تكاد تكون حادثاً فاصلا فى التاريخ، وهى معروفة للجميع، ألا وهى الثورة الفرنسية.

فاذا قلت للماديين ما الذى أشعل نار هذه الثورة؟ أجابوك بأنه السعى وراء الخبز أو الانقياد وراء المادة، يتمثل فى ثورة الجياع على المترفين، أو هى شكل من أشكال النضال الطبقى بين المحرومين والمتخومين. وكيف لا يكون ذلك وهذه الجماهير خرجت ثائرة تصرخ (نريد الخبز). أيوجد أكثر من هذا السبب الواضح الذى يؤيد رأينا؟ دون شك أنك تلاحظ أن هذا التفسير هو الذى سميناه التفسير الأمتدادى، والذى عرفناه بأنه التفسير الذى لا يوغل فى الأعماق ولا يتعرف إلى الماهيات من معرفة أصولها وجواهرها، وأصحابه لا ينفذون إلى أبعد من حواشى العين ولا إلى ماوراء البصر، فى حين أن العين لا تستطيع

الأحاطة بأكناه الأشياء ، وأن البصر ليس بمقدوره أن يواتى البصيرة الوقادة التى تخترق الحجب وتهتك الأستار لأنها تدرى أن وراء الجسوم قوة مجهولة ووراء الأشكال الظاهرة عوامل مسيرة دافعة . إن الثورة الفرنسية تبدو ثورة من ثورات الجياع لمؤلهى المادة ، ولكنها فى الحقيقة ثورة أوقد نارها الفكر الثائر قبل أن يضرمها الخبز ، وانها لم تكن لتحدث لو لم يقدح زنادها هذا المشعل المحرق . ولنعلم أن الإحساس بالظلم لم يشعر به الكادحون الذين كانوا فى خدر لذيذ يرون العبودية جزءاً من الحياة لا محول عنها بعد أن لصقت كأشبه ما يكون بالقانون فى ضمائرهم ، بل ان الذين شعروا به هم المفكرون الذين أيقظوا النائمين ووضعوا خطط التحرير . فهؤلاء المفكرون أحسوا بالظلم وتألموا من الاستبداد فى الوقت الذى كان فيه الجائعون ينظرون إلى أسيادهم كأنهم من ظلال القدرة العلية فى الأرض . وعندما تألم هؤلاء عملوا فى سبيل وجود أفضل و« مجتمع أصلح » فأخذوا يتفشون القوة فى هؤلاء الذين استكانوا للظلم وراحوا يعلمونهم معنى الحق والعدل والحرية هذه الألفاظ التى خلقوها خلقاً وأوجدوها ايجاداً . وأما المطالبة بالخبز فلم تكن إلا جانباً من الشعور بالحق ، هذا الشعور الذى ابتدأ فكرة مجردة ثم أخذ يعمل ليكون حقيقة واقعية . فبعد أن تمكنت فكرة الحق من النفوس عرف الناس أن من حقهم أن يشاركوا فى الرفاه والسعادة الأقلية المحتكرة . فالفكر هو الذى هدى وعلم ولم يكن أصحاب الخبز إلا تابعين يأتمون بأمامته . كان الفكر هو المحرك وكانت المادة عنصراً من العناصر التى تعاونت معه . كان هو الأصل ... هو الحقيقة الاصلية ، وإن شئت فقل هو الجوهر الفرد الذى يتركب منه الكون . قل لأصحاب المادة — كما يقول لهم الأستاذ أحمد أمين — هذه عناصر الخلية اخلقوا لنا منها خلية كخلايا الوجود . وعندها ستعرف أنهم لا يستطيعون فعل ذلك مهما أوتوا من مقدرة علمية ، لأن جوهر الخلية كنه مجهول ينفث فيها الحياة ، وهو سر غامض لا ندرى ماهو وكل ما نعرفه عنه ما يبدو من آثاره .

(ثانيا) يجول الماديون ويصولون ويروحون ويجيئون فى دوائر جهنمية لا حدود ولا منتهى لها . وكل ذلك ليفسروا فلسفة عمياء كليلة لا تملك من مقدمات الأسس المنطقية ما تستطيع بها أن تحيط بالوجود من جميع جوانبه . وهم يريدون تفسير الوجود فكان أمامهم طريقان : إما أن يقولوا إن هناك قوة مدركة حية تحرك الكون وتدير الحياة وهى بمثابة العلة الأولى لكل هذه النتائج ، وإما أن يركبوا متن الشطط فيؤمنوا بالمادة الصماء التى لا تعقل ولا تحس ، فاختاروا التفسير الثانى وتركوا الأول . ولا أدرى لماذا نترك فلسفة تفسر الوجود بالوجود لنتعلق بأهداب فلسفة غامضة تفسر الوجود بالعدم . فأمامكم ياناس حركة وأمامكم حياة فلم لا تؤمنون بقوة الحركة وبقوة الحياة ، لتغوصوا فى أعماق مجهولة لتؤمنوا بالجماد الذى لا يتحرك ولا يحس . إن مثلكم كمثل الذى يؤثر الظلمة على النور ، أو كمثل الذى يمسك بالحقيقة البينة ولكنه يدعها تفلت منه لأنه يستعذب الجرى والركض ولو إلى غير غاية .

(ثالثاً) ومهما تشعب القول فان هذه المادية منقوضة علما ومنطقا ، فهى لا تستطيع أن تفسر ما الأمل وما الطموح وما الأحلام . كما لا تستطيع أن تفسر لماذا يموت الجندى فى سبيل وطنه ، والتفسير المادى يقتضى منه أن يقدم ذاته على بلده . ولا تستطيع أن تفسر أيضاً كيف تفتدى الأم وليدها فى حين أن ظواهر الأشياء ومنطق التفسير المادى يفرضان عليها حب نفسها قبل غيرها . ويثبت المنطق أن الفكرة قوة من القوى والمادة شكل جامد ، وأن هذا الشكل لا يكتسب الحركة إلا بعد أن تحل هذه القوة فى هيكله . فالفكرة هى التى تدفع وتوجه ، والمادة تتشكل وتتخذ أوضاعاً ظاهرة . وقد يقال لا موسيقى بلا أوتار ، ولا بناء بلا أحجار ، ولا فكرة بغير مادة عصبية ؟ ولكن الكمنجة ليست هى الموسيقى ، والبناء ليس هو الأحجار ، والذهن ليس هو الفكر . إن لحنا من ألحان بتهوفن — كما يقول الفيلسوف رينان — موجود على الورق ، ولكن من يكسبه الحركة والحياة ؟ بلا شك العقل . وإن الفعل الارادى الذى يتمثل فى الاهتزاز هو الذى ينقله من عالم الجماد إلى عالم الحياة ، وهذا الاهتزاز حقيقة عضوية قابلة للوزن والقياس . إن الفكرة قوة تريد أن تكون والمادة تعينها وتنقلها إلى الكينونة والواقع . إن الفكرة هى الموجودة فى الواقع وهى وحدها الكامنة ،

وتطمح إلى الوجود التام بايجاد التراكب الكيميائية لاظهارها.

من كل الذى ذكرناه نرى أن الفلسفة المادية لا يمكن أن تتوافق مع الغاية التى تتحول اليها الظواهر والشيات والكائنات، لأن هذه كلها ترتفع من الأدنى إلى الأعلى ولا ترتد إلى حالة سابقة ولو تعاونت على ذلك كل قوى الانسان، فى حين أن التوحيد المادى ارتداد رجعى إلى حالة سابقة حيث يتحكم كل شيء فى الإنسان فلا إرادة تستطيع أن تؤثر على ماجريات التقدم لأن هناك قدرا صارما يحكم، ولا قوة عقلية تقدر أن توجه الأعمال إلى غايات مرسومة لأن الحلقة الآلية قد وضعت الحياة فى دائرتها فلا تدع لها الحرية فى العمل. وكل هذا يعاكس منطق الأشياء حيث نلاحظ أن الانسان كلما سار مع الزمن استطاع أن يخضع الطبيعة ويخضع التاريخ لمشيئته، وانه كلما اتجه إلى الأمام ارتفع إلى الاعلى ليتحرر من قيود الظواهر المكانية والزمانية ومن دكتاتورية المعاش ويقرب من الغايات المعنوية فى كل موجود من موجوداته

إن علائم التقدم والتطور تجمع فى كلمتين اثنتين: «الحرية» و «التقدم المعنوى» فالتحرر علامة فارقة لقياس الحضارة، والتقدم المعنوى عمود التطور إذا جسمنا كلمة التطور وألبسناها حلة التشبيه والتمثيل. وليس قولنا هذا محض سفسطة ومغالطة، بل هو منقول عن الحياة بعد أن خضع لمعايير العلم وتجارب التاريخ وعبر الازمان. فالعلم يقرر أن الانسان كلما ارتفع صعدا فى سلم الحضارة دقت عضلاته ومرنت عظامه وخفت حركته، أى كلما تقدم تحرر من قيود جسمه ليماشى الكون فى حركته الدائبة نحو الخروج ونحو الانفصال عن المركز إلى الخارج فى اندفاعاته الانتقالية. وتحطيم الذرة فى عصرنا الحديث ليس إلا مظهراً من مظاهر الشوق الوجودى إلى التحرر والانفصال عن الكتل والهيولى. إن كل ما فى الكون فى حركة دائمة يريد التحرر من المادة والدنو من الصورة، ويعمل على أن يفك عنه قيود التجسم ليعود إلى النموذج والمثال. فالصراع بين الهيولى والصورة والذى كان لب فلسفة أرسطو العظيم هو ناموس الأبد، بل قل جرثومة التطور وقانون الحياة.

ولعل التقدم المعنوى هو فرع من ناموس الحرية الذى فرض ارادته على الحياة فى كل سبيل من سبلها. وإذا أردنا أن نشرح هـــذا أكثر، فلنأخذ أشد الألفاظ لصوقا بالإنسان وأقدمها فى معاصرتها له، ولنسر وإياها فى تاريخها الطويل؛ فأننا سوف لا نجدها الاسائرة من التعبير عن ملابسات المادة إلى السمو والدلالة على تعبيرات الروح والفكر. خذ كلمة «الضحية» وهى الكلمة التى كتب عنها الأستاذ العقاد بحثاً قيماً فى عدد من أعداد الرسالة، فهذه الكلمة أول ما وجدت فى الحياة، وحياة الإنسان خاصة، كانت تعنى «النذر» التى كانت تقدم للأرباب والمعبودين، ولم تكن تعنى غير هذا المعنى المادى الملموس الدال على تقديم علائم الخضوع فى شكل أشياء مادية لاسترضاء الآلهة.

ولكن بعد أن سار الإنسان أشواطاً جديدة فى ميدان الحضارة أخذت الكلمة تدل على معان جديدة وراحت ترتفع من الدلالة على الأشياء المادية إلى التعبير عن أشياء معنوية كإنكار الذات وفداء النفس فى سبيل الوطن أو فى سبيل الشرف أو لأراحة الضمير ونحوها من المجازات والدلالات على معانى الأخلاق السامية.

(بغداد) فؤاد طرزى

إذا أردت نموذجا

من الميزان الدقيق، والتحليل العميق، والرأى الثاقب، والنقد الصائب، والدليل الذى يرشدك إلى قيم أشهر الكتب وأقدار أشهر الكتاب فاقرأ:

كتب وشخصيات

للاستاذ الناقد سيد قطب

فهو خير ما صدر فى هذه الفترة الأخيرة

من كتب التحليل والنقد

يقع فى ٣٥٢ صفحة من القطع المتوسط

ويباع فى دار الرسالة

وفى سائر المكتبات الشهيرة وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد